

الأبعاد السوسيو - ثقافية للمشروع

الاستعماري في الجزائر

الأستاذة: ليلى بن صويلح

جامعة جيجل

تمهيد :

إن الحديث عن المشروع الاستعماري في الجزائر يتضمن مختلف الجوانب السياسية العسكرية ، المادية ، الثقافية ، الاجتماعية إلخ التي تشكل معالم كبرى و محاور رئيسية في السياسة الاستعمارية التي كانت منتهجة ضد الجزائر غير أن التركيز على الأبعاد السوسيو - ثقافية و التي اتخذت جزءا كبيرا من مخطط المشروع الاستعماري يستوجب القيام بعملية تشخيص و تحليل لعدد من الأساليب و الطرق التي تعبر عن أبعاد هذا المشروع و التي استخدمها الاستعمار من أجل تفكيك بنية المجتمع الجزائري و محو شخصيته العربية الإسلامية و استبدالها بهوية أخرى غريبة عنه.

نظرة عامة للجزائر خلال القرن 19 عشر:

بعد القرن 19 و تحديدا المرحلة الممتدة من 1870-1900 من أخطر مراحل الاستعمار الفرنسي حيث تم تطبيق نظام مدني ينص على ضرورة تقسيم الجزائر إلى إقليمين كبيرين (صحراوي و ساحلي) و كان الغرض من ذلك تشتيت قوة الجزائريين و إضعافهم من جهة و من ناحية أخرى تفرغ

السهول الساحلية و طرد العنصر الجزائري معوضا إياه بفئة المعمرين و من الناحية الاجتماعية قامت فرنسا بتفكيك البنية التقليدية للمجتمع الجزائري إذ قسمت الأعراش و القبائل المتجانسة إلى وحدات إدارية متنافرة، و طبقت قانون التلقيب و الذي يقضي بعملية تشتيت و تمزيق العائلات الكبيرة إلى أسر صغيرة متناحرة و نقل السكان من مناطقهم الأصلية إلى مناطق غريبة عنهم حيث أضطر البعض منهم للهجرة نهائيا خارج الوطن و الأكثر من ذلك محاولة الاستعمار الفرنسي غرس في نفوس الشعب الجزائري ثقافة القبلية العشائرية مما يسهل السيطرة الاستعمارية خصوصا في ظل تعميم سياسة التجهيل و فتح المجال لفئة قليلة جدا و السماح لها بالانضمام إلى مدارس المعمرين و الأخطر من ذلك كله محاولة فرنسا فصل الدين عن الدولة و جعل شؤون الإسلام في الجزائر تحت إشرافها المباشر كل ذلك من أجل القضاء على مقومات الهوية الجزائرية و نتناول فيما يلي التطرق لبعض المحاور الكبرى بنوع من التفاصيل.

1- غرس ثقافة القبلية و العشائرية: حاول الاستعمار الفرنسي أن يتعرف على تركيبة و خصوصية المجتمع الجزائري و أدرك بأنه من طبيعة خاصة تتسم بالقوة و الترابط فتأكد له عجز و فشل الإمكانات العسكرية و المادية في السيطرة الفعلية على مثل هذه التركيبة المجتمعية فوظف بدهائه مجموعة من الأساليب الدنيئة ابتداء من 1830 و واصل العمل بها إلى سنة 1962 لتفرقة صفوف الجزائريين و إضعاف قوتهم لقد حاول الاستعمار الفرنسي أن يغرس في أذهان الجزائريين ثقافة مزيفة و مصطنعة تقوم على مجموعة من الأفكار الوهمية تقول بعدم وجود شعب و لا أمة جزائرية وإن المجتمع الجزائري خاصة المجتمعات الريفية قبل الغزو الفرنسي كانت تتكون من قبائل و أعراش متقاتلة متصارعة

فيما بينها و لم تكن سلطة تجمعها ، و أن الفضل في جمعها يعود للاستعمار الفرنسي .

إضافة إلى سعي المستعمر المستمر نشر ثقافة بين أفراد الأسر التي تركها العثمانيين في الحكم سنة 1830 فكان يؤلب الابن على الأب و ابن الأخ على عمه و يشعل نار الفتنة بتخصيص امتيازات كبيرة للأفراد الذين يشاركون في إخضاع الأعراش و تكسير الأسر التقليدية التي تتمتع بنفوذ واسع في أوساط العامة من الناس و التي كانت تتوارث الحكم و ترفض و تقاوم الاحتلال .¹ وقد نجح الاستعمار إلى حد كبير في إحكام سيطرة الوسوس الاوهام و بعض الأفكار المزيفة على عقول الجزائريين و انعكس ذلك جليا على المعارك و القتال المستمر بين الأعراش و القبائل لأتفه الأسباب.

2- تعميم سياسة التجهيل:

ركز المستعمر الفرنسي على تعميم سياسة التجهيل بين مختلف صفوف و طبقات المجتمع الجزائري و كان هذا هو الواقع الفعلي الموجود آنذاك و الذي يتعارض كثيرا و لا يتطابق مع ادعاءات المستعمر المزيفة و الكاذبة التي تدعي أن الشعب الجزائري عرف التعليم عن طريق فرنسا لأنه شعب أُمي و همجي و لم يرتقي بعد إلى سلم الحضارة غير أن الحقيقة التي يتفق حولها جميع الباحثين حتى الفرنسيين منهم هي أن التعليم في الجزائر كان في عام 1830 أكثر انتشارا الأمر الذي لم يكن يرضى السلطات الاستعمارية في الجزائر ، يقول الكاتب الفرنسي بولارد في كتابه (تعليم الأهالي في الجزائر) .

¹ خنوف علي: السلطة في الأرياف الشمالية : لبابلك الشرق الجزائري - الميزان للنشر و الطباعة

" كانت الجزائر فيما مضى تضم معاهد علمية عظيمة الشأن فالفلسفة و الآداب و الطب و قواعد اللغة و القانون الإسلامي و علم الفلك كل هذه العلوم كان يقوم بتدريسها أساتذة كبار من الجزائريين أنفسهم كما كانت هناك مدارس عديدة متخصصة في تعليم القضاء الشرعي و العلمي و كان الملوك يختارون مستشاريهم من صفوة المتعلمين من خرجي تلك المعاهد"¹.

بالنسبة لمسألة التعليم الجزائريين فقد برز تيارين متعارضين بالنسبة للتيار أو للفئة الأولى من المستعمرين التي تشجع سياسة تجهيل الجزائريين و غلق أبواب التعليم في وجوههم لأن هذا من شأنه تجميد عقولهم و شل حركة تفكيرهم و بالتالي يسهل إمكانية استعمارهم و استغلال خيراتهم على النقيض من ذلك نجد التيار الثاني يؤكد و يحذ ضرورة تثقيف و تعليم أهل الجزائر لأن هذا فيه مصلحة للاستعمار أولا و حاجتهم في ذلك أن المدرسة وسيلة لتجريد الشعب الجزائري من شخصيته تدريجيا يقول مسيو برنارد " لسي من الكرم أو الجود في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبيلة بل دعونا نقولها كلمة صريحة و نطلقها مدوية . إن ذلك في صالح فرنسا وحدها، و هو ما نضعه دائما نصب أعيننا"² و يمكن القول أن فلسفة تعليم الجزائريين بالنسبة للاستعمار الفرنسي تقوم على ضرورة التأكيد على عظمة فرنسا ، جيشها ثرواتها حتى يكون الشاب الجزائري ملما بالتفاصيل تاريخ فرنسا غير أنه من ناحية أخرى يُجهل معـالم بلاده (الجزائر) و تاريخها بحجة أنها مقاطعة فرنسية و يبقى الهدف الأساسي و البعد

¹ د/ يحي بوعزيز : السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري (1830-

1962) ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1995 - ص 159.

² نفس المرجع السابق - ص 162

الجمهوري من وراء هذه السياسة التعليمية هو تحويل الشباب الجزائري عن دينهم إفراغهم من اصالتهم و تجريد الشعب الجزائري من الشخصية و الهوية العربية وفي هذا الصدد يقول الشاعر الباكستاني محمد إقبال : " إن التعليم هو الحامض أشد قوة و تأثير من أي مادة كيميائية ، فهو الذي يستطيع أن يحول جيلا شائخا إلى كومة من التراب " ¹ فهناك بعض الشباب الجزائري من وقع فريسة سهلة في يد المستعمر بل أكثر من ذلك تحول من دون أن يعي ذلك و بفضل الاستعمار الفكري أو الرمزي إلى وسيلة أو أداة مسخرة لخدمة أهداف الاستعمار الفرنسي.

3- السيطرة على المنظومة الدينية : بدأت المؤسسات الدينية تظهر في الجزائر منذ القرن الأول الهجري و كان إقبال السكان على حفظ القرآن و تعلم اللغة العربية كما كان لرجال الدين و الزوايا سلطة روحية كبيرة على غالبية السكان نظرا لما للدين من قداسة لديهم ، و هذا ما جعل أغلبية الكتاب الفرنسيين يهتمون الجزائريين بالتعصب الديني و قد لجأت الحكومة الفرنسية إلى تدمير المساجد و تحويل بعضها إلى كنائس ، تهدم بعض الزوايا و إغلاق البعض الآخر و السماح لبعض المدارس بتحفيظ القرآن الكريم و لاشيء غير القرآن خاصة عندما يتعلق الأمر باللغة العربية باعتبارها واحدة من مقومات الذات الجزائرية في هذا الإطار يقول بولارد " اضطر التلاميذ إلى سعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتلقونه علانية و في حرية تامة ، و أسندت هذه السلطة الغاشمة إدارة

¹ د/ محمد السيد جمال الدين : محور الإصلاح عند محمد إقبال : مجلة كلتي الشريعة و أصول الدين و العلوم العربية و الاجتماعية بالقصيم - عدد 2 السنة الثانية 1401 - 1402 - المملكة العربية السعودية ص 132

المساجد إلى أيد غير آمنة بددت القسطنطين الأكبر من الأموال ، و منذ ذلك الحين أهمل أمر هذه المساجد التي كانت بمثابة دور للتعليم".¹

لقد حاولت فرنسا إحكام سيطرتها على المساجد و مختلف مؤسسات المنظومة الدينية من كتاتيب قرآنية ، زوايا ... إلخ و نجحت إلى حد بعيد في بسط نفوذها على نظام الدين باستحواذها على الأوقات و ريعها فراحت سلطة الإدارة الفرنسية من ذلك كانت تحرر خطب الوعظ و الإرشاد ثم يقوم المفتون بإلقائها تحت رقابة البوليس السياسي² و بما أن الاحتلال الفرنسي تدعمه الروح الصليبية فقد كان واحد من أهم أهدافه القضاء على الإسلام باعتباره نقطة قوة الشعب الجزائري ، فهو الذي يجمعهم و يوحدهم جميعا حتى و إن تعددت لهجاتهم و اختلفت أجناسهم ، و بالتالي فإن ضرب و إضعاف هذا الركن القوي (الإسلام) يعني شل المجتمع الجزائري و تشتيت صفوفه يقول أحد الكنسيين " ليس الغرض من فتح المدارس في شمال افريقيا أن نكون عقولا مثل عقول مونتسكيو أو جون جاك روسو أو فولتير و لكن لنبدل لغة بلغة و دينا بدين و عاداتا بعبادات "³ و هو ما عبرنا عنه سابقا بساسة البديل سواء تعلق الأمر باللغة العربية الدين الإسلامي و الثقافة الشعبية بمختلف تقاليدها ، أعراقها... إلخ

¹ د/ يحي بوعزيز : مرجع سبق ذكره، ص ص 160 - 161

² نفس المرجع . ص ص : 86 - 87

³ د/ ناهدا ابراهيم الدسوقي ، دراسات في تاريخ الجزائر ، منشأة المعارف الاسكندرية مصر -

2001 ص 20

4- استغلال الطرق الصوفية : ظهرت الطرق الصوفية كعقيدة فلسفية و دينية في الجزائر في بداية القرن 16 ثم أخذت تنمو لتنتشر على نطاق واسع في نصف الثاني من قرن 18 و الربع الأول من القرن 19¹ و الطرق الصوفية كثيرة الأنشطة و المهرجانات الموسمية كالزرد يحضرها الناس من أماكن مختلفة ، و هي قائمة أساسا على المحبة في الله و التضامن بين الإخوان و قد حاولت فرنسا أن تشغل نفوذ هذه الطرق الصوفية الواسعة الانتشار بالجزائر كالتيجانية السنوسية ، الشاذلية ، القادرية إذ أن لشيخ الطريقة نفوذ أوسع من نفوذ شيخ القبيلة² . و قد كان لهؤلاء المرابطين الطرقيون دور بارز في تعزيز الجانب الثقافي والسياسي للشعب الجزائري بحملهم لواء الثقافة ، التعليم ، تخليدهم لتراث من الأشعار و الأذكار و التألف ، غير أن هذا لم يعفهم من الوقوع في بعض مظاهر الدروشة ، الشعوذة ، الخرافات و البدع و هذا هو البعد الأساسي الذي ركز عليه المستعمر الفرنسي إضافة إلى سعيه المستمر خلق خلافات، خصومات بين بعض شيوخ الزوايا لأغراض شخصية تتعلق بالنفوذ و المكانة الاجتماعية وبعض القضايا الدينية الهامشية التافهة و كل هذا من أجل إلهاء الشعب و اشغالهم عن المقاومة و الثورة . و الأكثر من ذلك حشو أذهانهم بمعتقدات خرافية تساعد على تخلف الفكر الجزائري و الرجوع به إلى المرحلة اللاهوتية ، و المينافريقية

¹ د/ عميراي أحمدية : مختصرات في تاريخ الجزائر الحديث ، مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة

- 1999 ص 91

² لمزيد من التفاصيل حول هذه النقطة ، ارجع إلى : المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 : الدبلوماسية الجزائرية (1830-1962) - الجزائر

- 2001

للتفكير الإنساني كأن يتعلق الأمر بالإيمان في قدرة الموتى على رزق الأطفال الأموال، منع المصائب ، الشفاء من الأمراض ، إقامة الزردات على أضرحتهم الإيمان بجدوى التماس و التعاويذ في شفاء الأمراض - و على أي حال فإن الاحتلال الفرنسي رغم قساوته و خبثه بقي عاجزا عن تحطيم العقيدة الراسخة في نفوس الجزائريين و الذي يغذيها و يدعمه دوما الإسلام .

خاتمة :

إن التطرق لبعض ملامح المشروع الاستعماري في الجزائر سيما الأبعاد أو الجوانب السوسيو - ثقافية منه يعطينا نظرة شاملة حول فلسفة السياسة الفرنسية في الجزائر و محاولاتها الدنيئة زعزعة معالم الهوية العربية الإسلامية للذات الجزائرية دون استخدامات مكلفة ماديا او عسكريا بل يتعلق الأمر بسياسة البديل و كل هذا من منطق الفكرة الاستعمارية المزيفة القائلة بأن الجزائر مقاطعة فرنسية ، غير أن الشعب الجزائري قوي بإنتسابه الديني والروحي ، و هو ما جعله في كثير من الحالات يلحق الاستعمار الفرنسي دروسا لا تنسى لعل أشهرها صموده و اندلاع الثورة التحريرية و استقلاله في آخر المطاف.